المنظومة
ALMANDUMAH

العنوان:	التصوف الإسلامي: مدرسة التربية الروحية
المصدر:	قوت القلوب
الناشر:	الرابطة المحمدية للعلماء - مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة
المؤلف الرئيسي:	الجويلي، نصر
المجلد/العدد:	ع4
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الصفحات:	132 - 139
DOI:	10.12816/0013196
رقم MD:	574447
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	التصوف الإسلامي، التربية الروحية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/574447

© 2022 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

للإستشهاد بهذا البحث قم بنسخ البيانات التالية حسب إسلوب الإستشهاد المطلوب:

إسلوب APA

الجويلي، نصر. (2014). التصوف الإسلامي: مدرسة التربية الروحية.قوت القلوب، ع4، 132 - 139. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/574447

إسلوب MLA

الجويلي، نصر. "التصوف الإسلامي: مدرسة التربية الروحية."قوت القلوبع4 (2014): 132 - 139. مسترجع من http://search.mandumah.com/Record/574447

© 2022 المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو المنظومة.

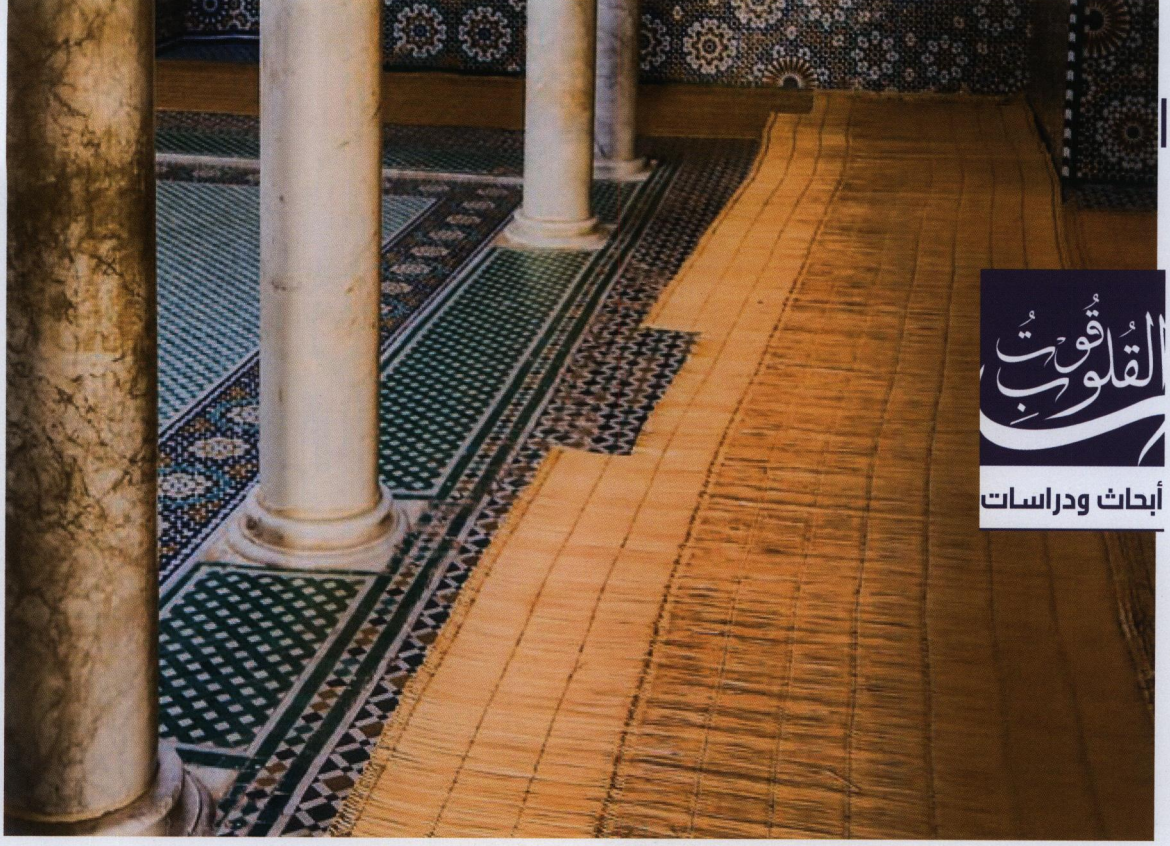

التصوّف الإسلامي
مدرسة التربية الروحية

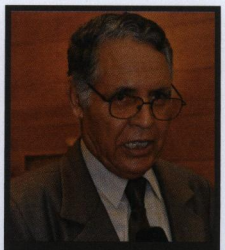

د. نصر الجويلي
جامعة الزيتونة، تونس

تقديم:

يمتاز عصرنا اليوم بأنه عصر غلبت عليه الحضارة المادية، حيث أصبحت حياة الأفراد والجماعات فيه خاضعة في جلّ نواحيها إلى معايير الحضارة المادية التي أصبحت تقوّم كل شيء بما يحققه من منفعة دنيوية عاجلة. وقد ظهرت آثار هذا التقدم المادي في المأكل والمشرب والملبس ونمط العيش، والعلاقات الاجتماعية والأسرية. كما انعكس هذا التقدم على الحياة الفكرية والدينية، وهو ما أفرز قيما جديدة، ونظريات علمية، وأنظارا فلسفية ودينية، يدعو أصحابها إلى علمانية تفصل بين الدين والحياة، وإلى لايكية تدعو إلى الإلحاد والتخلّي عن الأديان، وطرح القيم الأخلاقية والتربوية والعرفية جانبا في العلاقات بين الدول والشعوب، الشيء الذي أصبح ينذر بالخطر ويهدد الإنسانية في عقائدها وقيمها الروحية.

هذا التحول في دنيا الدين والعلاقات بين البشر، صاحبه تحدٍّ داخلي أصبح يروّج له الكثير من الأتباع قصد الطعن في كل ما له علاقة بالدين والأخلاق. وقد مسّ هذا الطعن التصوّف الإسلامي باعتباره في أنظار هؤلاء الأتباع تصوّف لا يمت إلى الإسلام بصلة، وأنه عبارة عن بدع ابتدعها أصحابه ودعاته ومريدوه، قصد إلهاء الشعب عن قضاياه الحقيقية مثل الحرية والعدالة والتنمية، فكان الركون إلى العزلة والزهد والرضا بالمكتوب، والرضوخ إلى هيمنة الشيوخ والمريدين.

إن هذه التحديات التي واجهت التصوف الإسلامي قديما وما زالت تواجهه حديثا، لا سبيل إلى دحضها إلا ببيان الوظيفة الحقيقية للتصوف الإسلامي، والأدوار الدينية والاجتماعية والتربوية التي قام بها عبر التاريخ، والتي يجب أن يضطلع بها اليوم حتى يحقق للأجيال تربية روحية سليمة ومعتدلة بعيدة كل البعد عن الغلو والتطرّف.

1 - مفهوم التصوّف الإسلامي

هناك عدة مفاهيم للتصوف يمكن إيجازها فيما يلي:

أ- اتجاه أخلاقي يربط التصوّف بالسلوك والأخلاق، فهو حسب هذا الاتجاه «الدخول في كل خلق سنيّ، والخروج من كل خلق دني»، وهو «خلق فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الصفاء». [1]

ب- اتجاه يربط التصوف بالزهد والعبادة، وهذا الاتجاه يهتم بالوسيلة التي يتخذها المتصوف، وهذه الطريقة كما يقول ابن خلدون: «لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريق الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الحياة وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة». [2]

ج- اتجاه يربط أصحابه التصوّف بالمعرفة والمشاهدة ورؤية القلب، وهو يعبّر عن الاتجاه الروحي والتجربة الشخصية التي يعيشها المتصوّف. وبهذا الاعتبار الصّوفي: «من صفّى ربّه قلبه. فامتلأ قلبه نورا. ومن دخل في عين اللذّة بذكر الله». [3]

ومن خلال هذه التعريفات يمكن أن نعتبر أن التصوّف علم يهتم أولا وآخرا بالأخلاق والسلوك والتربية النفسية. وهذا المعنى قد لخّصه الشيخ أبو الحسن الشاذلي بقوله: «التصوف علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم ووسطه عمل وآخره موهبة». [4]

2 - التصوف مدرسة للتربية

أ- مفهوم التربية من حيث اللغة: تقول العرب: ربا الشيء ربوا وربوا: نما وزاد. قال الله تعالى: ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾.[سورة الحج. آية 5] أي: زادت وانفتحت، أما اصطلاحا: بناء الإنسان بناء متكاملا متوازنا متطورا جسما وعقلا وخلقا.

وللتربية سواء أكانت بدنية أم نفسية الدور الكبير في تنمية شخصية الفرد فكرا وعقيدة وسلوكا، فمن خلال تربية الفرد يظهر توجّهه وعقيدته التي يبني نفسه على العمل من أجلها، وبناء الفرد أخلاقيا ليس ضروريا للنجاح في حياته الخاصة فحسب، بل إنه ضرورة أيضا في بناء المجتمع حتى يكون سعيدا ومعافى من الأمراض الخلقية السيّئة.

وإذا كانت التربية عموما تتنازل عن الجوانب الأساسية في الإنسان، فإن الجانب الروحي من أهم

الجوانب في الطبيعة الإنسانية، وهو الذي يميزه عن الحيوان، وهو الذي يدفعه إلى الاستقامة ورعاية حقوق الله وحقوق العباد.

ولما كانت غاية الغايات من التصوّف الإسلامي تطهير النفس من الأمراض والعلل التي تحجب الإنسان عن الله والعالم وتقويم انحرافاته النفسية والسلوكية، كان من الضروري معالجة هذه الأمراض وذلك بالوقوف على الداء أولا، وتوصيف العلاج ثانيا، ذلك لأن النفس البشرية تحمل في العادة جملة من الصفات التي تحتاج إلى تهذيب وتقويم مثلها مثل الجسد الذي يحتاج إلى تربية ورعاية.

ولما كان الجسم يحتاج إلى أن يعالج بالدواء، فإن النفس في حاجة إلى من يعالجها بالتربية والتزكية وزرع صفات الخير فيها، مثل المحبّة والتواضع والإيثار والتعاون وعبادة الله وطاعته والتخلّق بالأخلاق الحسنة، والاعتدال والتوازن بين مطالب الروح والجسد.

ومن هنا تصبح التربية الروحية في التصوّف الإسلامي غايتها الأساسية بناء الإنسان وإعداده لخير النشأتين الدنيا والآخرة، والانتقال به من نفس غير مزكاة إلى نفس مزكاة، ومن قلب قاس مريض إلى قلب مطمئن سليم، ومن روح غافلة عن ذكر الله إلى روح عارفة به، قائمة بحقوقه، حريصة على إرضائه قولا وفعلا وسلوكا وتصرفا في الظاهر والباطن.

وهذه التربية موكولة بالأساس إلى الصوفية الذين يقدّمون التصوّف كأساس للتربية النفسية، ووسيلة تحقيقها المثلى لأن المتصوّفة يجمعون بين طرفي التربية وذلك بالعلم والعمل، والتفكّر والتدبّر والنظر والممارسة، وكانت الأخلاق غايتهم الأساسية في بناء الإنسان. فلقد كان للمحاسبي الأثر الكبير في الاعتناء والتأكيد على السلوك ومقاماته وأحواله، وفيمن جاء بعده من الصوفية كالإمام أبي حامد الغزالي الذي استفاد من كتابه: الرعاية لحقوق الله.

ومن الصوفية الذين غلب عليهم الكلام في الأخلاق والسلوك والنفس وآدابها: السّري السقطي تلميذ الكرخي، وهو «أول من تكلّم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال»، ومن أقواله في تربية النفس والسلوك: أقوى القوة أن تغلب نفسك. ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز»،[5] وقال: «ما رأيت شيئا أحبط للأعمال ولا أفسد للقلوب ولا أسرع في هلاك العبد ولا أدوم للأحزان، ولا أقرب للمقت، ولا ألزم لمحبة الريادة والعجب من قلّة معرفة السعيد لنفسه ونظره في عيوب الناس».[6]

وفي الرسالة القشيرية ما يوضّح لنا أن أوائل الصوفية كانوا يستخدمون إلى جانب اصطلاحي الطريق والطريقة اصطلاح السلوك أي السّير في الطريق، وهي اصطلاحات تعبّر في نظرهم عن الجانب النفسي والأخلاقي من التصوّف كالمقامات والأحوال، التي هي عبارة عن فضائل وأحوال نفسية وأخلاقية تكون ثمرتها في مجاهدة النفس والترقّي بها حتى تصل إلى مقام التوحيد والمعرفة بالله.[7]

كما أن هذه التربية الروحية موكولة إلى الصوفية، «لأنهم هم الذين ورثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلّم تربية النفس وتزكيتها. وفطنوا إلى ما لم يفطن إليه غيرهم. كما أنهم هم الذين ملكوا العلم الذي تتهذّب به النفوس البشرية في علاقتهم مع الله عز وجل أو فيما سوى ذلك».[8]

وبذلك فهم القادرون على إيجاد الإنسان في كمالاته كلّها الكمال الديني والخلقي والاجتماعي، إنسان يكون في علاقة محبّة مع الله تعالى ومع الآخرين.

ومن هنا لا بد أن ندرك أن تأسيس فلسفة تربوية صوفية يعتبر من الضرورات الملحّة في هذا العصر. فلسفة لا بد أن تقوم على الرعاية النفسية وعلى المعرفة الحقّة التي تتجلّى فيها الحقائق، لينال صاحبها السعادة والرضا دنيا وآخرة.

3 - مظاهر التربية الروحية في التصوّف الإسلامي

* تزكية النفس

لما كان موضوع التصوّف أساسا هو الزهد في متاع الدنيا والإكثار من الأعمال التي تقرّب الإنسان إلى الله تعالى، فإنّ تزكية النفس هي إحدى أمهات أمور التصوّف، بل إنها لتكاد أن تكون علما على هذا العلم. وهذه المسألة أهملت في هذه الأمة تقريبا إلا عند هذه الطائفة،[9] في حين أن من المقاصد الأساسية والرئيسية للرسالات السماوية تزكية النفس ومجاهدتها حتى تستقيم على الصراط المستقيم، لقوله صلى الله عليه وسلم: (والمجاهد من جاهد نفسه في ذات اللهـ). (رواه الترمذي)، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وأما من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى فإنّ الجنّة هي المأوى﴾. [سورة النازعات. آية 41].

لأنّ النفس يعتريها المرض كما تعتري الجسم العلل، بحيث تتفاوت هذه الأنفس من حيث درجاتها وقربها من الله تعالى، فهناك:

- نفس مزكاة
- ونفس منساة
- ونفس أمارة بالسوء
- ونفس لوّامة
- ونفس مطمئنة تستحق من الله الرضا لأنها راضية عن الله.

ومن هنا تصبح مجاهدة النفس وسيلة الهداية القلبية إلى الله تعالى ورضوانه، والهداية هي مقدمة التقوى، ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم﴾. [سورة محمد. آية 17].

وبتزكية النفس وطهارتها يصير الإنسان مستحقا في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة، لقوله تعالى: ﴿قد افلح من تزكّى وذكر اسم ربّه فصلّى﴾. [سورة الأعلى. آية 13-14].

ولأنّ الغاية من تزكية النفس تطهيرها من سوء الاعتقادات وسوء الأخلاق، وتنقيتها من القبائح والرذائل.

والنفس الزكية هي النفس الطيبة الطاهرة البعيدة كل البعد عن كل دنس، ولهذا أشار القرآن في قوله تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾. [سورة الشمس. آية 10] أي: فاز من طهّرها من الذنوب، ونقّاها من العيوب، وجمّلها بالعلم والعمل الصّالح. وقد خسر من ترك تكميلها بالفضائل ودنّسها بالرذائل.

والتزكية منّة من الله تعالى على من يشاء من عباده، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا﴾. [سورة النور. آية 21]، وقوله سبحانه: ﴿بل الله يزكّي من يشاء ولا يظلمون فتيلا﴾. [سورة النساء. آية 49].

والتزكية عند الصوفية التلقّي عن الشيخ الذي يدلّ السالك إلى الطريق المستقيم، ويضع له العلامات الهادية، ويحذّره من الوقوع في المزالق والمهالك التي تعترض سبيله، واتخاذ المرشد واجب عند الصوفية، «وقد أجمع أهل الطريق على وجوب اتّخاذ الإنسان شيخا له يرشده إلى زوال تلك الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله بقلبه، ليصبح حضوره وخشوعه

في سائر العبادات من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».[10] يروى عن أبي علي الدقّاق قوله: «الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق لكن لا تثمر. كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته نفسها فهو عابد هواه لا يجد نفاذا».[11]

ويقول الفخر الرازي في تفسيره لسورة الفاتحة: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾، «لم يقتصر عليه بل قال: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾، «وهذا يدل على أن المريد لا سبيل له إلى الوصول إلى مقامات الهداية والمكاشفة إلا إذا اقتدى بشيخ يهديه إلى سواء السبيل، ويجنّبه عن مواقع الأغاليط والأضاليل. وذلك لأن النقص غالب على أكثر الخلق. وعقولهم غير وافية بإدراك الحق وتمييز الصّواب عن الغلط، فلا بد من كامل يقتدي به الناقص حتى يتقوى عقل ذلك الناقص بنور عقل الكامل. فحينئذ يصل إلى مدارج السعادات ومعارج الكمالات».[12]

وقال عبد الواحد بن عاشر في منظومة العقائد والعبادات والفقه المالكي المسماة: المرشد المعين، مبينا ضرورة صحبة الشيخ المريد وما تنتج عنه من آثار طيبة:

يصحب شيخا عارف المسالك
يقيه في طريقه المهالك
يذكّره الله إذا رآه
ويوصل العبد إلى مولاه
يحاسب النفس على الأنفاس
ويزن الخاطر بالقسطاس
ويحفظ المفروض رأس المال
والنفل ربحه به يوالي
ويكثر الذكر بصفو لبّه
والعون في جميع ذا بربه
يجاهد النفس لرب العالمين
ويتحلّى بمقامات اليقين

وعلى هذا أوصى العارفون بالله كلّ من أراد سلوك طريق الحق الموصل إلى معرفة الله ورضاه بالصحبة لهؤلاء المرشدين الدّالين على الله تعالى، الموصلين إلى حضرته القدسية.

ومما يوصي به أبو حامد الغزالي سالك الطريق: «أن يكون له مرشد ومربّ ليدلّه على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة، ومعنى التربية أن يكون المربّى كالزارع الذي يربّي الزرع. فكلما رأى حجرا أو نباتا مضرا بالزرع قلعه وطرحه خارجا، ويسقي الزرع مرارا إلى أن ينمو ويتربّى ليكون أحسن من غيره. وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربّي علمت أنه لا بد للسالك من مرشد البتّة».[13]

* التربية على التقوى

التقوى هي خشية الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا نبي الله أوصني. فقال: (عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنّه رهبانية المسلم. وعليك بذكر الله فإنه نور لك). (أخرجه أحمد في مسندهـ).[14]

وأصل التقوى اتقاء الشرك، واتقاء المعاصي والسيّئات واتقاء الشبهات، وظاهرها المحافظة على الحدود، وباطنا النيّة والإخلاص.

و«التقوى عند أهل الحقيقة: الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وصيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك»،[15] وأن لا يرى الإنسان في قلبه شيئا سوى الله تعالى وترك ما دونه.

لذا فإن تزكية النفس لا تحصل إلا بالتقوى، لما فيها من صيانة للنفس عما تستحق من العقوبة، كما ذهب إلى ذلك أهل التصوف، باعتبارها الوسيلة الوحيدة إلى السعادة في الدنيا والآخرة لقوله تعالى: ﴿تريدون عرض الحياة الدنيا والله يريد الآخرة﴾. [سورة الأنفال. آية 67].

وبخصوص آثار التقوى على حياة الإنسان في الدنيا قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسّره لليسرى﴾. [سورة الليل. آية 5-7].

كما أن للتقوى آثرها في سعادة الأمة ونزول البركة عليها من السماء والأرض، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ولو أنّ آهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾. [سورة الأعراف. آية 6-9].

وتقوى الله تقتضي:

إخلاص النية حتى يكون العمل خالصا لوجهه تعالى، لا تشوبه شائبة من حيث المال والجاه والمنزلة والشهرة. ﴿قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين﴾. [سورة الأنعام. آية 162-163].

مراقبة الله تعالى في السرّ والعلن: ولهذا حين سأل جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الإحسان قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهذا مطلوب في كل عمل دنيوي وأخروي، فإحسان العمل فريضة، والإحسان إلى الناس فريضة، لأنّ الله كتب الإحسان في كلّ شيء.

محاسبة النفس: إذا كان تصحيح النيّة يكون قبل الإقدام على أي عمل سواء أكان دنيويا أم أخرويا. فإن المراقبة تكون عند العمل حتى لا يخرج عما أراده الله وما أمر به، فإن المحاسبة تكون بعد تمام العمل، يؤيده ما جاء في الحديث: (الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هداها وتمنّى على اللهـ).

ومحاسبة النفس لها شديد الصّلة بالتقوى، لأنها تدفع إلى الاجتهاد في اتّباع الصّواب، واستكمال النقص والتطلّع الى الكمال، ولهذا أجمع على ضرورتها المتصوّفة وعلماء الأخلاق والتربية.

*** التوبة من الذنوب:**

لقد أبدى علماء الصوفية اهتماما كبيرا بموضوع التوبة، بدراسته ومحاولة الإحاطة به من سائر جهاته ومختلف نواحيه، فعرّفوا التوبة وبينوا درجاتها، وما يجب على السالك لبلوغ مرتبة الإنابة إلى الله، من ذلك أن الغزالي يعرّفها بقوله: «إن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة: علم، وحال، وفعل، والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابا واقتضاء...، وسنة الله تعالى في الملك والملكوت».

والعلم عند الغزالي هو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب.

والعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك «أي ترك الذنوب في الحال والاستقبال والتلاقي للماضي، ثلاثة معان مرتبة في الحصول، فيطلق اسم التوبة على مجموعها، وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم

وحده، وبهذا الاعتبار قال صلى الله عليه وسلم: (الندم توبة). (رواه الإمام احمد في مسنده عن ابن مسعود، والبخاري في التاريخ، وابن ماجة والحاكم)، إذ لا يخلو الندم من علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه. فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعني ثمرته ومثمره».[16] ويصوّر الغزالي التوبة تصويرا آخر في كتابه الأربعين، فيقول: «حقيقة التوبة: الرجوع عن طريق البعد، إلى طريق القرب».[17]

أمّا ابن القيم فإنّ التوبة عنده «هي الرجوع مما يكرهه الله تعالى ظاهرا وباطنا، ويدخل في مسماه الإسلام والإيمان والإحسان، وتتنازل جميع المقامات الروحية التي سار فيها السالك خلال عمله الروحي إلى الله جلّ جلاله وعمّ نواله».[18]

إذن فالتوبة:

الرجوع إلى الله والتجرّد من كل ما يحول دون وصول التائب إلى ربه سبحانه وتعالى.

التجرّد من كدورات النفس البشرية التي تكون سببا في حجزه عن خالقه.

وبما أنّ حكمة الله اقتضت عادة تنوّع الأذواق الروحية ومسالكها، تنوعت على أساس ذلك نظرة أصحابها إلى التوبة كل حسب طريقته ومشربه، فالذنوب تقع على ثلاثة أوجه:

- ذنب بين العبد وربّه.
- ذنب بين العبد وعبد آخر.
- ذنب بين العبد وبين الأعمال كتركه مثلا الصلاة والصيام.

ومن هنا يظهر أن الذين نظروا إلى التوبة وتنوّعها، إنما نظروا إليها:

باعتبار تفاوت طاقات التائبين الروحية واختلاف قابليتهم القلبية.

باعتبار الذنوب المنسوبة إلى العبد في ذلك، ودعوة الصوفية إلى تزكية النفس بالتوبة مرجعهم.

أنواع التوبة:

لقد اجتهد علماء الصوفية في بيان أنواع التوبة وتوضيحها، منها:

توبة الإنابة: وهي مخافة الله من أجل قدرته.

توبة الاستجابة: وهي الاستحياء من الله تعالى لقربه من العبد.

توبة العوام: وتكون من الذنب والمعصية.

توبة الخواص: وتكون من الغفلة عن الله تعالى وعن رسوله.

توبة خواص الخواص: وتكون من سوى الله تعالى والأغيار والركون إلى المقامات والأنوار.

توبة المريدين: وهي أن ينسى العبد ذنبه.

توبة المحققين: وهي أن ينسى العبد ذنبه.[19]

إنّ الباعث على الوقوف عند هذه الأنواع من التوبة في نظر السالكين طريق الحق والهداية مرجعه أساسا إلى أنّ:

- التوبة قيام روحي، وانتباه فكري، وتيقظ قلبي خالص، مرجعه القرآن والسنة النبويّة، في قوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيّه المؤمنون﴾. [سورة غافر. آية 3]، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾. [سورة التحريم. آية 8]، ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: (التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب لهـ). (أخرجه ابن

ماجة من حديث ابن مسعود).

- وقد أكد الصوفية على الالتزام بالتوبة لأنها أصل من أصول طريقتهم، جاء ذلك في قول سهل التستري: «أصول طريقتنا سبعة: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكفّ الأذى، وتجنّب المعاصي، ولزوم التوبة وأداء الحقوق».

- وقد عبّر الغزالي عن هذا المعنى أحسن تعبير بقوله: «وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلاّ بالتقوى، وكفّ النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كلّه قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمّة على الله تعالى».[20]

هذه القيم التربوية ما هي إلا نمط من التعامل، وأسلوب عمل يصبو إلى تحقيق التوازن والاستقرار والسلام. ولذلك فهي تحتاج إلى منهج تعليمي أخلاقي يرسّخ في النفس الإنسانية هذه الأدبيات والقيم.

وبناء على هذا يبدو لنا أن هذه الأصول التربوية ضرورة أساسية للحياة الفردية والجماعية قصد تأسيس وبناء مجتمع متماسك على حد أدنى من الأخلاق، وعلى قدر معيّن من الوعي الذي يوازن بين حقوق الله تعالى وحقوق العب، وبين المصالح الذاتية والجماعية، تحقيقا للاستقرار والتواصل والتوافق والتعاون والانسجام.

ضمن هذا الأفق إذن يمكن القول إن التصوّف باهتمامه بالتربية الروحية، يمثل رافدا أساسيا ومعنويا زاخرا بالقيم يمكن أن يدعم أواصر الإخوة والسلام والتعايش بين البشر.

الهوامش:

1 - الرسالة القشيرية، القشيري، دار الكتب الحديثة، مصر، د.ت، ص ص: 551-554.

2 - المقدمة، ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر، ط 1، 1998م، ص: 462.

3 - التصوف طريقا وتجربة ومذهبا، كمال جعفر، دار المعرفة الجامعية، 1980م، ص ص: 7-8.

4 - معراج التشوف إلى حقائق التصوّف، ابن عجيبة، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، د.ت، ص: 1.

5 - طبقات الصوفية، السّلمي، كتاب الشعب، ط 2، 1998م.

6 - الطبقات الكبرى، الشعراني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م، 1/ 64.

7 - مدخل إلى التصوّف الإسلامي، أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 3، القاهرة، ص: 109.

8 - تربيتنا الروحية، سعيد حوى، نشر دار السلام، ط 6، القاهرة، 1999م، ص ص: 16-17.

9 - المرجع السابق، ص ص: 16-17.

10 - تنوير القلوب في معاملة علاّم الغيوب، أمين الكردي الشافعي، دار الكتب العلمية، 2006م، ص ص: 44-45.

11 - الرسالة القشيرية، ص ص: 2-4.

12 - مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، ط 21، 1/ 142.

13 - خلاصة التصانيف في التصوّف، الغزالي، دار اليمامة للطباعة والنشر، 1900م، ص: 18. وأيضا الإحياء، 3/ 65.

14 - الرسالة القشيرية، ص: 143.

15 - التعريفات، الجرجاني، عالم الكتب، بيروت، 1987م، ص: 94.

16 - إحياء علوم الدين، الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، 4/ 4-6.

17 - الأربعين في أصول الدين، دار الجيل، بيروت، 1988م، ص: 143.

18 - مدارج السالكين، ابن القيم، دار الحديث للطباعة والنشر، د.ت، 1/306.

19 - الكبيرة والآثار المترتبة عليها عند المتكلمين، ثائر إبراهيم خضير السّمّري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006م، ص ص: 439-440.

20 - المنقذ من الضلال، الغزالي، تحقيق: جميل صليبا، دار الأندلس، بيروت، 1973م، ص: 134.